

المقاييس الحجاجية في تفسير "روح المعاني" لشهاب الدين الألوسي

Pilgrimage Standards in Interpreting the 'Spirit of Meaning' for Alusi Religion

تاريخ القبول: 2020-06-22

تاريخ الإرسال: 2017-05-30

نوال نمير، جامعة محمد أمين دباغين سطيف 2

nawal.nemir@gmail.com

الملخص

الحجاج فعالية خطابية خرجت من رحم البلاغة القديمة، فتلقفتها الأسلوبية والتداولية واستثمرت آلياتها وطبقتها على عديد النصوص فأنت أكلها وثمارها كل حين.

وتهدف هذه الدراسة إلى اتخاذ المقاييس الحجاجية مناويل يتوصل بها إلى دراسة الخطاب التفسيري، محدداً في كتاب "روح المعاني" للألوسي، مركزة على أطره، ومنطقاته ووظائفه، التي سعى من ورائها الألوسي جاهداً إلى إقناع المتلقين، وجعل العقول تسلم لما يطرح عليها من أفكار وقضايا تحصيلاً للطاعة والإذعان، مرمي كل محاج. الكلمات المفتاحية: الحجاج، الإقناع، المتلقي، المقاييس الحجاجية، الخطاب التفسيري.

Résumé

L'argumentation est une performance discursive née au temps de la rhétorique antique, puis ressuscitée par la stylistique et la pragmatique. Fructueuse comme stratégie, son efficacité est confirmée dans de nombreux textes et en tout temps. La présente étude a pour but de prendre les paramètres argumentatifs comme des archétypes qui mènent à l'étude du discours explicatif, précisément dans l'œuvre L'âme des sens de son auteur Al-Aloussi. En se basant sur ses contextes, ses points de départ et ses fonctions, l'auteur s'efforce de convaincre les récepteurs de son œuvre et vise à amener les esprits à adhérer aux idées et aux thèses proposées afin d'acquérir obéissance de ces lecteurs et leur soumission, visée de chaque argumentateur.

MOTS-Clés: L'argumentation, Convaincre, Le récepteur, Les paramètres argumentatifs, Le discours explicatif.

Abstract

Argumentation is a discursive efficiency which is derived from ancient rhetorics and retained by stylistics and pragmatics while investing its mechanisms and applying then on many texts. So, it is fruitful at all times, or rather it gives its fruits all the times. This study aims to take the argumentative parameters as archetypes examples to the study of the explanatory discourse speech precisely in the work «The Soul of Meaning» by «Al Aloussi». The latter is based on its contexts, starting point and functions as well through which he strives to initiate the ideas and theses which are proposed to acquire for obedience and submission aimed by each debater.

Key words: Argumentation, convincing, receiver, Argumentative parameters, explanatory discourse.

مقدمة

وترتكز هذه الدراسة على تفسير: "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" لصاحبه: "شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت1270هـ) جاعلة من النظر في الحجاج مكوناً من مكونات الخطاب التفسيري منتهى وغاية. والذي يعنينا في دراسة جانب الحجاج في هذا المقام هو: ضبط أطره وتقنياته ووظائفه. فما الحجاج؟ وما درجة حضوره في تفسير روح المعاني؟ ثم ماهي الآليات الحجاجية التي وظفها الألوسي بغية إقناع متلقي خطابه؟

أولاً: مصطلح الحجاج

الحجاج لغة: مأخوذ من حَجَجَ: الحَجَّ: القَصْدُ، وَرَجُلٌ مَحْجُوجٌ أي مقصود. والحجَّة: البرهان وقيل الحجَّة: ما دُوِّفِعَ به الخصم، وقال الأزهري: الحجَّة: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رَجُلٌ مَحْجَاجٌ أي جَدَلٌ، والتَّحَاجُّ: التَّخَاصُمُ، وجمع الحجَّة: حَجَجٌ. (1)

وقال "ابن فارس" في "مقاييس اللغة": "حَجَّ: الحاء والجيم أصول أربعة، فالأول: القَصْدُ، وكلُّ قصد حَجٌّ، ويمكن أن تكون الحجَّة مشتقة من هذا، لأنها تُقَصَّدُ، أو بها يُقَصَّدُ الحقُّ المطلوب، يقال: حَاجَجْتُ فلاناً فَحَجَجْتُهُ أي غَلَبْتُهُ بالحجَّة. وذلك الظفر يكون عند الخصومة." (2)

وحَدَّ الحجَّة: الدليل والبرهان والجمع حُجَجٌ، كما ورد في المصباح المنير(3).

هذا عن الحجاج في مصادره اللغوية.

أما في الاصطلاح: فقد حظيت نظرية الحجاج بأهمية بالغة إذ جذبت إليها مجالات مختلفة كالفلسفة والأدب واللسانيات والسيماثيات، وحتى القانون وعلوم الاتصال وكلّ يمتح منها بما يتماشى مع خصوصيته فيتجدد بها ويجددها.

وواقع الأمر أنّ الحجاج ضارب في أعماق الحضارات القديمة سيما اليونانية منها، فنجد تعاطيها يعود إلى أفلاطون وأرسطو والسفسطائيين وقد امتزج الحجاج في عصرهم مع الخطابة والجدل. «فكلم Argument مشتقة من الفعل

إنّ الناظر للحضارة العربية الإسلامية نظرة متفحصة يدرك مدى ارتباطها بالتصّ القرآني إذ يعدّ قطب الرّحى الذي تدور حوله كلّ المذاهب الفكرية والعقدية بمختلف مللها ونحلّها، لذلك لا غرابة أن توسم هذه الحضارة بالمركزية، أو بحضارة التصّ. هذا الأخير فرض نفسه في بيئة شفهية أجلت الكلام ومجّدت فعله. ذلك أنّه عكس قيمة الفهم في هذه الثقافة، حيث نال عناية جميع المنظومات المعرفية، الأصولية والكلامية والتفسيرية فشكّل بذلك شبكة مفهومية مغايرة.

ولا أدلّ على ذلك من اختلاف التّفسير التي حاولت قراءته وفهمه فتعدّدت به اتجاهات وتنوّعت مشارب، فمن التفسير بالأثر، إلى التفسير بالرأي والنظر، إلى التفسير بالإشارة والبصر.

وما اختلاف هذه الأساق العقديّة، إلّا دليل التفاعل الحاصل في الثقافة العربية الإسلامية، ثم هو مؤشّر اختلاف المفسّرين في رؤية العالم. الأمر الذي ولّد جدل الأفكار وصراع التّأويلات، واختلاف زوايا النظر بحثاً عن الحقيقة الكاملة والمطلق المتناهي. فكلّ يحاجج عن مبادئه وطروحاته، وكلّ وجد لما يؤمن به امتداداً وتغذية بحكم الطّبيعة اللغوية المنفتحة على الفهم والتّأويل، فانفتاح دلالة التصّ القرآني يؤدّي إلى تعددها تعدّداً لا نهائياً.

وهذا التعدّد ما هو إلّا قسمة مشتركة بين المرسل والمتلقّي حتّى لا يقع أيّ منهما في فخّ القبض على الحقيقة، ووهم التسييح والإحاطة بمعنى أحاديّ ونهائيّ، لا محيد عنه، ولا بديل سواه.

ومنه كان التّأليف في علم التّفسير متواصلاً، في كلّ عصر ومصر، بل غدا ضرورة ملحة تمثّل حلقة وصل بين التصّ المقدّس وقارئه، الذي ابتعد عن معهود كلام العرب وطرائق كلامهم زمناً ليس باليسير.

لذلك غدا هذا العلم بإقرار الدّارسين والباحثين في مضمار الفكر الإسلامي، نصّاً موازياً للخطاب القرآني يطلبه هذا الأخير طلباً حثيثاً، أمثلته الحاجة ابتغاء الفهم الذي يتولّد عنه العمل بالتّنزيل.

وعلى رأس العرب المحدثين يعرف "طه عبد الرحمن" الحجاج بأنه: "الملفوظ أو المنطوق موجّه إلى الغير، لإفحامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها (12).

ثانياً/ الأطر الحجاجية

1/ مقولة الجمهور

هذا التوجّه يقتضي منهجياً أن نعتبر الألوسي محاجاً يتوجّه بخطابه إلى جمهور يتلقّاه فينفع به انفعال طاعة واستجابة أو انفعال ردّ وإنكار. وحضور الجمهور لا ريب له أهمية عظيمة سواء أكان هذا الجمهور واقعا مُدركا (مباشرا) أو افتراضا ممكنا (غير مباشر) خاصا أم كونيا. لذلك ينزع "بيرلمان" و"تينيكاه" إلى أن "لا حجاج بدون وجود جمهور، يرمي الخطاب إلى جعله يقنع ويسلم ويصادق على ما يعرض عليه (13)، وحتى نصل الكلام بعبءه ببعض نلاحظ أنّ جمهور الألوسي الذي توجّه إليه بالخطاب جمهوران: جمهور عامّ يشمل من أسلم وآمن، وآخر خاصّ يصيب كلّ من أنكر وعاند ووجد بيان القرآن.

إنّ هذين الصنفين من الخطاب ينتج عنهما كون خطاب الألوسي الحجاجي خطابا مركبا تجتمع فيه قيمتا الدّعم والمساندة في الأوّل، والتّفي والدّحض والتّفنيد في الثاني، وهاتان القيمتان يثوي وراءهما صامت عقديّ، وخاف مذهبيّ مداره الانتصار لمن يسند رأي الألوسي ذي الخلفيّة الإشاريّة المعتمدة في أنّ القرآن: "فرقان كشّاف عن فرق الكتب الإلهيّة الغياهب، وأبرز- الله- من سجد أوهيته نورا أشرق على مرايا الكائنات بحسب مزايا الاستعدادات، فاتضحت من معالم العوالم المراتب" (14) وفي أنّ:

"محمّد أول دُرّة أضاعت من الكنز المخفي في ظلمة عماء القدم...مهبط الوحي الشّفاهي الذي ارتفع رأس الرّوح الأمين بالهبوط إلى موطن أقدامه معدن السرّ الإلهي...فهو النّبّي الذي أبرزه مولاه...ليكون شرحا لكتاب صفاته وتقديره...وأنزل عليه قرآنا عربيّا غير ذي عوج ليكون للعالمين نذيرا:

وشقّ له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمّد" (15).

وهذه الخلفيّة العقدية القائمة على أساس قداسة النّصّ فهو قرآن عربيّ غير ذي عوج من جهة ومكانة حامله معدن

اللاتيني Arguere وتعني جعل الشيء واضحا ولامعا وظاهرا" (4).

ولأنّ الفكر الغربي عموما قائم على المراودة والمراجعة يطالعنا "بيرلمان" و"تينيكاه" بكتابهما "مصنّف في الحجاج- الخطابة الجديدة - يرميان من خلاله إلى "إخراج الحجاج من...دائرة الخطابة والجدل" (5). ذلك أنّ الخطابة ألحقت به "تهمة المغالطة والمناورة والتّلاعب بعواطف الجمهور وبعبئه أيضا (6).

كما عمل الباحثان على تخليص الحجاج من صرامة الاستدلال الذي يجعل المخاطب به في وضع ضرورة وخضوع واستلاب (7) فالحجاج عندهما معقولة وحرية. لذلك يذهبان إلى تعريفه بقولهما: «موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التّسليم" (8).

وبعضدّان هذا المفهوم في موضع آخر بقولهما: "أنجع الحجاج ما وقّف في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السّامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه) أو هو ما وقّف على الأقلّ في جعل السّامعين مهيبين لذلك العمل في اللّحظة المناسبة (9).

وهذان القولان اتّخذهما هذا المقال ركيزتين أساسيتين، يعود إليهما كلّما اقتضت الحاجة.

ويرادف علماؤنا العرب القدامى بين مصطلحي " الحجاج والجدل" وهو ما أشار إليه "عبد الله صولة" في كتابه: "الحجاج والقرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية" فهذا ابن منظور - كما مرّ معنا- يؤكّد هذا بقوله: هو رجل محجاج أي جدلٌ " وذهب أبو " الوليد الباجي " المذهب ذاته في وصفه لكتابه "المنهاج في ترتيب الحجاج" - وإن كان مؤلّفه في علم أصول الفقه - بأنه كتاب في الجدل (10).

ولم تخلُ كتب علوم القرآن من الوقوع في هذا التّرادف بين المصطلحين حتّى عند المتأخّرين منهم، إذ يطالعنا كلّ من "الزّركشي" في كتابه "البرهان في علوم القرآن" والسّيوطي" في مؤلّفه "الإتقان في علوم القرآن" باستخدامهما ألفاظ المحاجة والحجاج والاحتجاج، في الفصل الذي عقده لجدل القرآن على أنّها ألفاظ مرادفة للفظ الجدل وتسدّ مسدّه (11).

حدّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتها إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشّعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لا يُشكّ أنّه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعا فيها قصب الرّهان... فكان الصاد عن ذلك صادّاً عن أن تعرف حجّة الله تعالى، وكان مثله مثل من يتصدّى للنّاس فيمنعهم أن يحفظوا كتاب الله تعالى، ويقوموا به ويتلوه ويقرئوه" (19)

والقارئ لروح المعاني يجد أنّ استعمال الألوسي للشّعر لها فيه من طاقات تخيلية في سبيل الاستهواء، ودعم الحجّة، لها " للشّاهد الشّعري من سلطة مرجعية في الثقافة العربية الإسلامية، ذلك أنّ الكاتب أو القائل يُنمّي عن فضله بوفرة وتنوّع استشهاده، ويعاتب إذا لم يتمثّل بكلام غيره" (20)

ومن ثمّ فالشّعر يستدعي باعتباره حجّة في ردع وإفحام الخصوم، حتّى تدمغ الحجّة الحجّة، فإذا الأولى راجحة والثّانية زاهقة باطلة.

وبما أنّ الحجاج فعالية خطابية، وممارسة فكرية يعتمدها المتكلم للتأثير على المتلقي بغية إقناعه أو تغيير معتقده أو سلوكه (21) فقد تسلّح الألوسي بكلّ ما يمكّنه من إقناع المتلقي ومن ذلك - تمثيلاً لا حصراً - ما يعرف بـ:

2/ أ الشّواهد الشّعريّة الأدبية

وهي الأبيات من الشّعر التي يتمثّل بها المفسّر في تفسيره على معنى من المعاني التي تعرّض لها في تفسيره، فهي للتمثّل لا للاستشهاد... وإنّما أوردتها المفسّر لإيضاح المعنى الذي يرمي إليه ويقصده (22).

ورغم أنّ هذا النوع من الشّواهد يكثر في تفاسير المتأخّرين والألوسي واحد منهم، إلا أنّ جُلّ المفسّرين اعتمدوا الشّاهد الشّعري مُرتكزاً لفهم كتاب الله والقبض على المعنى والدلالة يقول " الطاهر بن عاشور: " إنّ القرآن كلام عربيّ، فكانت قواعده العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم، لمن ليس بعربيّ بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي...ومن وراء ذلك استعمال العرب المُتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم، وتراكيب بلغائهم" (23).

السّر الإلهي نعني محمّداً - صلى الله عليه وسلّم - من جهة ثانية تجعل الخطاب موجّهاً إلى الجمهور المتلقي توجيهها يصيب في مرحلة أولى مرمى الإقناع Conviction إن تلقّاه المعتقدون المؤمنون، ويدرك في مرحلة ثانية الإقناع Persuasion إن تلقّاه الجاحدون الرادون، ممّا يجعل عمل الخطاب عملاً مزدوجاً (16)

كما تحظى الواقعة الأولى (عظمة الله) بإجماع لا مزيد عليه خاصّة في محيط البيئة الإسلامية وبذلك يغدو استحضر الوقائع التي تتسم بالاشتهار والإجماع مصادرة على مطلوب الجمهور الذي يعبر نجاعة الخطاب بمدى التوافق الحاصل بين القول المبتوث وأفق انتظار المتقبّل" (17).

لذلك فالمفسّر في هذا المقام يخاطب جمهوراً يشاركه قضية الإجلال والتّعظيم لذات الله أيّاً كان هذا المتلقي ومهما كان مذهبه، فهي قضية أجمع عليها كلّ من آمن بالله، ولبس لبوس الإسلام ويقود هذا الإجماع بالضرورة إلى توقيف حامل الرّسالة ومتلقيّ الوحي الأول، الذي شقّ له الإله العظيم من اسمه فذو العرش محمود وهذا محمّد.

وحاصل هذا وضع دوائر مشتركة بين المحاج (الألوسي) والمحجوج (جمهور المتلقين) وأكبر دائرة وأهمّها دائرة التّوحيد وبوّابة الإسلام "لا إله إلا الله محمّد رسول الله".

هذه الدائرة تفتح باب التّواصل لتلقي ما هو آت وتحقيق الإذعان وتحصيل الطّاعة وهو هدف المفسّر الذي عمل وسعى إليه، خاصّة إذا علم المحجوج أنّ صاحب الطّرح قد "خُصّ بمزايا تقف دونها الأمانى حسرى، وامتاز بخواصّ علمية وعملية لا يستطيع لسان الدّهر لها حصراً" (18).

لذا كان لزاماً على الألوسي أن يتقمّص في كثير من الأحيان ذات المتلقي ليقف على ما يختلج فيها من اعتراضات وشبه وحجج مبطلّة، وهذا لا يكون إلا إذا سبر ذات المتلقي من جميع جوانبها فيقف على مشاربها ومذاهبها وأهدافها.

2/ الشّاهد الشّعري

نشير بداءة أنّنا في هذا العنصر نضرب صفحاً عن الخلاف الواقع في مسألة جواز الاحتجاج بالشّعر وعدمه لأنّ هذا الحيّز لا يسعه بسطها، ونحسم فيها الخلاف بقول "عبد القاهر الجرجاني": "وذلك أنّنا إذا كنّا نعلم أنّ الجهة التي منها قامت الحجّة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كان على

وهكذا حينما يعزّز الشاهد قول أو اعتقاد المفسّر "ينتفي عن هذا القول عراؤه ويظهر مسنودا إلى خلفيات معرفية ووجدانية، هذه الخلفيات كقيلة بأن تنقل القول من مجرد رأي خاص إلى اعتقاد مشترك ومعلوم أنّ الجمعي أكثر مصداقية وأقرب للإقناع" (28).

من على شرفة ما تقدّم نلحظ أنّ الألوسي استعمل الشاهد الشعري أداة حجاجية تعضد موقفه وتوازّر توجيهه، من جهة، وتحقق له طاعة وإذعان المتلقي/المحجوج من جهة ثانية. لذلك حقّ للجاحظ قديما أن يقرّر بأنّ مدار العلم على الشاهد والمثل.

ثالثا/ التقنيات الحجاجية

1/ حجة الحدّ والتعريف

تعدّ الحدود والتعريفات أشكالا حجاجية وأنماطا برهانية، يتسلّح بها المحاج ليصيب مرمى الاقتناع فيوظفها "للمصادرة على قواعد الابتداء البرهاني التي يتقوم بها محيط الاعتقاد ويضع من خلالها مآل الاقتناع" (29).

وقد تعدّد تواجد هذه الحجة عند الألوسي في خطبة كتابه. حيث يقول في إحدى الفوائد التي أوردتها في مقدّمة تفسيره: "فالتفسير تفعيل من الفسر وهو لغة البيان والكشف والقول بأنّه مقلوب السفر ممّا لا يسفر له وجه، ويطلق التفسير على التعرّية للانطلاق يقال: فسرت الفرس إذا عربته لينطلق ولعله يرجع لمعنى الكشف كما لا يخفى، بل كلّ تصاريف حروفه لا تخلو عن ذلك كما هو ظاهر لمن أمعن النظر" (30). والتأويل من الأول وهو الرجوع (31).

وهذا النوع من الحجج يؤسّس عند المتلقي أرضية تضمن عملية التّواصل لتلقي ما هو آت، كما أنّها "تبنى في وجدان المحجوج ضربا من التمكن الذي يختزل عقائد المؤول، ويترجم أفكاره، ما تعلق منها بالنصّ، وما تلبّس منها بالوجود" (32).

وبذا يغدو هذا النوع من الحجج من أهمّ الآليات التي يستغلّها المفسّر وهو يوجّه متلقّيه وجهة الإقناع.

2/ حجج العرض والبسط

هذا النوع من الحجج مداره الوصول بمتلقّي الخطاب التفسيري إلى صحّة الآراء والتأويلات، وسلامة التخرّيجات،

فهذا القول ولا ريب يجلو مدى ارتباط تفسير القرآن بديوان العرب ومعهود كلامهم، ومنه أضحت المدونة الشعرية العربية أداة للاحتجاج لكلام الله تعالى، وهي طريقة سار عليها القدماء، وتبعهم على آثارها المتأخرون، وكلّ يخطب ود فهم كلام رب العالمين.

وبذلك اكتسب الشاهد الشعري قيمة مضافة داخل الثقافة العربية الإسلامية فوق تلك التي كانت له حتّى أضحى "المفسّر لا غنى له في بعض المواضع من الاستشهاد على المراد في الآية ببيت من الشعر، أو بشيء من كلام العرب لتكميل ما عنده من الدّوق، عند خفاء المعنى، وإقناع السامع

والمتملّم اللذين لم يكمل لهما الدّوق في المشكلات" (24).

و من الشواهد الأدبية أن ورد في موضع تفسير قوله تعالى: "الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون" (25) ورد قوله: "عدّل سبحانه عن (الله مستهزئ بهم) المطابق لقولهم، إلى قوله: (الله يستهزئ بهم) لإفادة التجدد الاستمراري وهو أبلغ من الاستمرار الثبوتي الذي تفيدته الإسمية لأنّ البلاء إذا استمرّ قد يهون، وتألفه النفس كما قيل:

خُلِقْتُ أَوْفًا وَلَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ

شَيْبِي مَوْجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا (26)

فهذا البيت - وهو للمتنبي - يورده الألوسي ليقوّي به فكرته في أنّ البلاء إذا استمرّ وتواصل استمرّاته النفس، وتعدّدت عليه، فيصبح أمرا هيّنا. وحتّى يرسخ المفسّر هذا الزعم ينقل المتلقي من أجواء الآية وظلالها إلى ظلال الشعر الذي يطرح بدوره فكرة الألفة والاعتیاد، على لسان الشاعر الذي بلغ من العمر مبلغ الشيب، ولطول مكوثه معه وقعت بينهما ألفة حميمة، لو قُطعت بالرجوع إلى الصبا، مرحلة العنفوان واللّهو والمسرات، لكان الفراق موجعا مؤلما.

لذلك غالبا ما يكون "الهدف من الشعر الحجاجي استثارة الشعور والوجدان، أو استثارة العقول والخيال، فالأولى غاية نفسية، والثانية غاية تعليمية" (27)، والألوسي محاجّا ضرب كلتا الغايتين بحجر واحد، فوظف الشاهد الشعري كحجة مثبتة على الادّعاء.

وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾
" (36).

وقوله: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالُكُمْ مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٧﴾" (37). ويا لله تعالى العجب كيف يقول باحتمال ديوان المتنبي وأبياته المعاني الكثيرة، ولا يقول باشمال قرآن النبي - صلى الله عليه وسلم - وآياته، هو كلام رب العالمين المنزل على خاتم المرسلين على ما شاء تعالى من المعاني المحتجبة وراء سرادقات تلك المباني... بل ما من حادثة ترسم بقلم القضاء في لوح الزمان إلا وفي القرآن العظيم إشارة إليها فهو المشتمل على خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت" (38) فهذا هو مذهبه الذي يدعو إليه من خلال عرضه لقضية الظاهر والباطن وإقامته الحجّة العقلية والدليل القرآني.

وليس اختلاف كتب التفسير وتنوعها، اتجاهات ومذاهب، إلا جريا وراء الحقيقة التي يدعي كل امتلاكها، براود المحاجّ بوساطتها المحجوج عن عقله وقلبه بغية إقناعه بها وصولاً به إلى الثقة واليقين، وهو "تنازع على سيادة المطلق المنشود... الذي تُسأس بتوهمات امتلاكه إرادات المعتقدين" (39). ومن ذلك قضية خلق القرآن التي يورد بشأنها قوله: "أوردها بأسلوب عجيب وتحقيق غريب لا أظنك شققت سمعك بمثل لآليه، ولا نورت بصرك بشبه بدر لياليه" (40).

وبذلك يسيح المتلقّي بأسلوبه العجيب وتحقيقه وتدقيقه الغريب، مشيراً بذلك إلى سعة اطلاعه وتبحره في العلوم وامتلاكه ناصية اللغة والأسلوب تركيباً وعرضاً، فلا يجد المحجوج نفسه إلا وهو يذعن ويسلم له في كل ما يعرضه ويذهب إليه من بنات أفكاره.

والقضية هذه ليس من السهل الخوض فيها، ذلك أن من سبقه من أرباب العلم والتفسير على اختلاف نزعاتهم فصلوا فيها الكلام وأتوا فيها بعلم الرواية والدراية وهذا لم يمنعهم من محاجتهم وإثبات فساد آرائهم يقول: "... أقوام تشابهت قلوبهم واتحدت أغراضهم، وإن اختلفت أساليبهم، وها أنا بحوله تعالى راد لاعتراضاتهم بعد نقلها، غير هياب ولا وجل، وإن اتسع علم أهلها فالبعوضة قد تدمي مقلة الأسد، وفضل الله تعالى ليس مقصورا على أحد" (41)

ومنه نرى الألوسي تمثيلاً لا حصراً يستند إلى القصص التاريخي ليسوغ لنا قضية مفادها أن في القرآن العظيم علم الظاهر والباطن يقول: "وأما البواطن فيفيضها المبدأ الفياض على بواطن من شاء من عباده" (33).

ثم هو يستدعي قصة وردت في تاريخ ابن خلكان فحواها أن "السلطان صلاح الدين لما فتح مدينة حلب" أنشد القاضي "محي الدين" قصيدة بائنة، وكان من جملتها: وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشّر بفتوح القدس في رجب.

فكان كما قال، فسئل القاضي، من أين لك هذا؟

فقال أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى: "الْمَّ ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝" (34) فلم أزل أنطلب التفسير المذكور حتى وجدته على هذه الصورة".

وفي السياق ذاته يورد الألوسي خبر استنباط "ابن الكمال" فتح مصر على يد السلطان سليم من قوله تعالى "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" (35).

فلا يغيب عن الذهن بعد هذا أن الألوسي محاجاً يلجأ إلى التاريخ ليدعم مزاعمه ويقوي طروحاته. والمتأمل في النص الأول لا يخفى عليه تحكّم الثاوي العقدي الذي يتحرّك من خلاله الألوسي فهو قد اختار تفسير "ابن برجان" ليكون هادياً ودليلاً إلى تثبيت ما ذهب إليه من أن القرآن يشمل علم الظاهر والباطن، فالفهم يرفد بعضه بعضاً ذلك أن ابن برجان له تفسير بعنوان "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والتبأ العظيم" وهو من تفاسير أهل التصوّف أصحاب الإشارة والبصر، والألوسي بدوره من أصحاب التفسير الإشاري فنزوعه وميله إل تفسير من المضمار ذاته يعكس عقيدة الرّجل وإيديولوجية التي يريد جذب المتلقي إليها.

ويعضد هذه الفكرة رده على الذين ينكرون الباطن، وإنكاره عليهم، متسائلاً، متعجباً، مدلاً على صحة مذهبه بآيات من القرآن العظيم يقول: "ويا ليت شعري ماذا يصنع المنكر بقوله تعالى: "ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ

عليه وسلّم- في ذلك كالكبريت الأحمر" (45)، فما يأخذه على هذا المجرى هو قوله بوجوب الثقل في تفسير معاني كتاب الله، ويحاججهم بأن ما ورد عنه- صلى الله عليه وسلّم- نزر قليل بل هو كالكبريت الأحمر، ولو كان كل معنى في القرآن له ما يفسره من الحديث لها اختلفت التفسيرات وتنوعت، ولاكتفت الأمة بالثقل، ولكفى الله المؤمنين القتال.

ويذهب الألوسي محاججا أصحاب هذا التيار، نازعا عنهم ثوب القداسة بالكلية، مشهرا بشيوخهم وكبرائهم، حيث يقول في معرض حديثه عن قضية خلق القرآن: "تشنيع ابن تيمية وابن القيم... على من خالفهم الرأي في قضية خلق القرآن صرير باب أو طنين ذباب، وهم وإن كانوا فضلاء محققين وأجلاء مدققين لكثرت كثيرا ما انحرفت أفكارهم واختلطت أنظارهم فوقعوا في علماء الأمة، وأكابر الأئمة، وبالغوا في التعنيف والتشنيع وتجاوزوا في التسخيف والتفطيع. ولولا الخروج عن الصدد لوقيتهم الكيل صاعا بصاع، ولتقدّمت إليهم بما قدّموا باعا بباع، ولعلمتهم كيف يكون الهجاء بحروف الهجاء، ولعرفتهم كيف ينتهي المرء بلا مرء" (46).

على ضوء ما تقدّم تبرز وظيفة الهدم والدحض للآراء المناوئة وكل ذلك بغرض إقناع المتلقي بالإعراض عن مثل هذه الطروحات وتقبل الطرح الألوسي، حتى يكون كل ما يذهب إليه مفسرا أو مؤولا قولاً منتهيا، وبرهانا قاطعا. والشيء الجدير بالإشارة أنّ الألوسي لا يبعد متلقيه عن الخطاب ويقصيه، بل لطالما أشركه معه في مواطن عديدة وعبر صيغ مختلفة، فبعد طرح الألوسي لكلام المعتزلة في قضية خلق القرآن يقول مولجا متلقيه داخل الخطاب: "ولا أظنك تحوجني إلى التفصيل بعدما وعاه فكرك الجميل، بل ولا تكلفني ردّ هذه الأقوال الشنيعة التي هي لديك إذا أخذت العناية بيدك كسراب بقية" (47).

وفي موضع آخر نجد قوله: "ومما ذكرناه علمت أنّ القلب يميل إلى هذا السابح- أي أنّ المقصود بالأحرف السبعة اللغات- فافهم ذلك والله يتولّى هُداك" (48). وغير خاف أنّ هذا من باب الاستدراج بغية تحقيق إذعان المتلقي/ المحجوج.

وبعد عرض طويل، وتفصيل دقيق، وقول حقيق، يصل الألوسي بمتلقي خطابه إلى ماء معين لا غور فيه "نعم البحث دقيق لا يرشد إليه إلا توفيق كم أسهر أناسا، وأكثر وسواسا، وأثار فتنة، وأورث محنة، وسجن أقواما، وأمّ إماما: مرّام شطّ مرمى العقل فيه ودون مدها بيد لا تبيد ولكن بفضل الله تعالى قد أتينا فيه بلبّ اللباب، وخلاصة ما ذكره الأصحاب، وقد اندفع به كثير ممّا أشكل على الأقوام، وخفي على إفهام ذوي الإفهام" (42)

وبهذا الطرح تنجلي الحقيقة، ويندفع الإشكال بفضل هذا الفارس الهمام الذي أتى بما لم تستطعه الأوائل من ذوي الأفهام في قضية خلق القرآن، سيما وأنها مسألة ضاع هدف العقل في تحصيلها، فكان دونها بيد لا تبيد.

الأمر الذي يصيب مرءى في استراتيجيا الطاعة والإطمئنان القاضية "بتمكين الحقائق المعروضة والآراء المبسوسة على كيانات الجمهور، يؤمن بها ويعمل بتعاليمها" (43).

ولمّا كان الأمر على الجهة التي قدّمنا كان التنازع حول امتلاك الحقيقة محرّكا للخطاب الحجاجي الذي اتّخذه المفسرون مطية لإثبات عقائدهم وإقناع متقّليهم.

رابعا/ الوظائف الحجاجية

1/ الهدم والدحض

تقوم وظيفة الهدم بتقويض وانتقاد آراء ومعتقدات رسختها مؤسسات الاعتقاد السابقة التي أفرزتها الثقافة العربية الإسلامية، والتي حاولت كلّ منها إنطاق النصّ القرآني بما يخدم مبادئها وتوجهاتها فجدد الألوسي مفسرا يردّ على أصحاب الدّرابية والتّظر قائلًا: "وأما من صرف عمره بوساوس أرسطو طاليس واختار شوك القنافذ على ريش الطّواويس، فهو بمعزل عن فهم غوامض الكتاب وإدراك ما تضمّنه من العجب العجاب" (44).

ولا يخفى ههنا أنّه يخرج المعتزلة ومن نحا نحوهم عن فهم كتاب الله العظيم لاشتغالهم بما جاءت به الفلسفة اليونانية وتطبيق قوانينها على القرآن الكريم.

كما نراه ينكر على مجرى الرواية والأثر في القضية ذاتها بقوله: "والعجب كلّ العجب ممّا يزعم أنّ علم التفسير مضطرّ إلى الثقل في فهم معاني التراكيب، ولم ينظر إلى اختلاف التفسير وتنوعها ولم يعلم أنّ ما ورد عنه - صلى الله

2/ الترشيح

ترتبط بالهدم والدحض ووظيفة أخرى هي وظيفة الترشيح التي يتم فيها طرح البديل الذي من أجله تمّ الدحض والإقصاء، وهي وظيفة "تذهب بالمقاصد الحجاجية، وتمضي بالإضمارات الإقناعية إلى أعلى المراتب التي ينجّر عنها انخراط الجمهور في سياق ما بناه الترشيح المقالي، والإسناد المقامي" (49).

وهذا ما يظهره قول الألوسي: "وأما كلام السادة الصوفية في القرآن فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك" (50) وكذا قوله: "فالإنصاف كلّ الإنصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز للدائرة المحمدية ما هم عليه، وأتهم ذهنك السقيم فيما لم يصل لكثرة العوائق والعلائق عليه" (51).

لا نجافي الصواب بعد هذا إن قلنا أنّ الألوسي بما هو محاجّ أدخل مناوئيه دائرة الاتهام، وبيّن مثالهم، في حين خلّص السادة الصوفية أو أصحاب مجرى الإشارة والبصر، ورفع مقامهم وأعلى من شأنهم، فهو بذلك ينفي خطابات ويعلي مقامات، وهو المسكوت عنه في خطابه التفسيري، كيف لا وهو المحاجّ الذي "ألهمه ربّه بما لم يظفر به في كتاب من دقائق التفسير، وأعلق على ما أعلق ممّا لم يتعلّق به ظفر كلّ ذي ذهن خطير" (52).

فالترشيح إذن جعل من مجرى الإشارة والبصر طبقة مصطفاة، تفهم عن الله مراده، ومعانيه وهو ما يجب على المحجوج التسليم له والأخذ به.

خاتمة

جماع القول ممّا سبق أنّ الخطاب التفسيري في روح المعاني، خطاب حجاجي بامتياز، سواء أعلّق الأمر بما أظهره الخطاب أم بما أضمّره.

ذلك أنّ الألوسي بما هو محاجّ، حصل من وراء العملية الحجاجية غايته الكامنة في جعل العقول تدعن لما يطرح عليها وتسلّم به، وذلك عبر وسائط وآليات المحاجة المستخدمة والتي تنوّعت حسب ما يقتضيه المقام.

الأمر الذي جعله يسجّل مرمى في استراتيجيا التصديق وتحصيل الطاعة، من خلال الأطر والمنطلقات والتقنيات المتبّعة، وبذلك تمرّ العملية الحجاجية عبر مراحل ليجد المتلقّي نفسه واقعا في أحاييل لا فكّك منها إلا بالتسليم والاستجابة.

وأخيرا، إنّ عملنا في هذا المقال لا يعدو كونه مجرد مقاربات لا ندعي الوصول إلى نتائج يقينية ثابتة بل إنّ شأنها شأن الدراسات اللغوية والأدبية خاصة، والإنسانية عامة، إذ هي نسبية ومقاربة.

الهوامش

1. ابن منظور: لسان العرب ، تحقيق عامر أحمد حيدر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، 2009 ، ط 2 ، م 2 ، ص من 257 إلى 260.
2. أحمد ابن فارس: مقاييس اللغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2011 ، ط 3 ، ص 277-278.
3. المقرئ الفيومي: المصباح المنير ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 2010 ، ص 70.
4. حافظ إسماعيلي علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته ، عالم الكتب الحديث ، إربد الأردن ، 2010 ، ج 1 ، ص 02.
5. عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، فريق البحث في البلاغة ، إشراف حمّادي صوّد جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة ، مئوبة ، تونس ، ص 298.
6. المرجع نفسه ، ص 298.
7. المرجع نفسه ، ص 298.
8. المرجع نفسه ، ص 299.
9. المرجع نفسه ، ص 299.
10. حافظ إسماعيلي علوي: الحجاج مفهومه ومجالاته ، ص 04.
11. المرجع نفسه ، ص 04.
12. طه عبد الرّحمان: اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي ، المركز الثقافي ، الدّار البيضاء ، ط 1 ، ص 266.
13. عبد الله صولة: الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته ، ص 306.
14. شهاب الدّين الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني تحقيق محمّد السّيد وسيّد إبراهيم عمران ، دار الحديث القاهرة. 2005 ، م 1 ، ص 21.
15. المرجع نفسه ، ص 21.
16. فرق ما بين الإقناع والاقتناع ، فالمرء في حالة الاقتناع يكون قد أقنع نفسه بواسطة أفكاره الخاصّة ، أمّا في حالة الإقناع فإنّ الغير هم الذين يقنعونه دائماً (ينظر عبد الله صولة ، الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته).
17. علي الشّبعان: الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل ، دار الكتاب الجديد ، بيروت لبنان ، 2010 ، ط 01 ، ص 375.
18. الألوسي: روح المعاني ، م 2 ، ص 6.
19. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، تحقيق محمود شاكر ، مكتبة الخانجي القاهرة ، 2004 ، ط 5 ، ص 8-9.
20. عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابية- دراسات بنيوية في الأدب العربي- دار الطليعة للطباعة والنّشر ، بيروت ، لبنان ، 1997 ، ط 3 ، ص 76.
21. عبّاس حشّاني: خطاب الحجاج والتّداوليّة ، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، 2014 ، ط 1 ، ص 01.
22. عبد الرّحمان بن معاضة الشهري: الشّاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم ، أهميته وأثره ومناهج المفسّرين في الإستشهاد به ، مكتبة المنهاج للنّشر والتّوزيع ، الرّياض ، السّعوديّة ، 2010 ، ص 86.
23. الطّاهر بن عاشور: التّحرير والتّنوير ، الدّار التّونسيّة للنّشر تونس ، 1984 ، ج 1 ص 18.
24. المرجع نفسه ، ص 18.
25. سورة البقرة: آ: 15.
26. الألوسي: روح المعاني ، م 1 ، ص 234.
27. عبّاس حشّاني: خطاب الحجاج والتّداوليّة ، ص 239.
28. عبد اللّطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة ، منشورات ضفاف ، بيروت لبنان ، 2013 ، ط 1 ، ص 241.
29. علي الشّبعان: الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل ، ص 415.
30. الألوسي: روح المعاني ، م 1 ، ص 24.
31. المرجع نفسه ، ص 24.
32. علي الشّبعان: الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل ، ص 415.
33. الألوسي: روح المعاني ، م 1 ، ص 29.
34. سورة الرّوم: الآيات من 1 إلى 04.
35. سورة الأنبياء: آ: 105.
36. سورة الأنعام: آ: 154.
37. سورة الأنعام: آ: 38.
38. الألوسي: روح المعاني ، م 1 ، ص 29.
39. علي الشّبعان: الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل ، ص 494.
40. الألوسي: روح المعاني ، م 1 ، ص 33.
41. المرجع نفسه ، ص 41.
42. المرجع نفسه ، ص 44.
43. علي الشّبعان: الحجاج والحقيقة وآفاق التّأويل ، ص 295.

44. الألويسي: روح المعاني، م 1، ص 28.
45. المرجع نفسه، ص 28.
46. المرجع نفسه، ص 44.
47. المرجع نفسه، ص 46.
48. المرجع نفسه، ص 48.
49. على الشبعان: الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل، ص 366.
50. الألويسي: روح المعاني، م 1، ص 28.
51. المرجع نفسه، ص 30.
52. المرجع نفسه، ص 22.